قطر الندى

امرأة من نوع خاص

لم يغفر المصريون أبداً لقطر الندى: أنها كانت السبب في افتقار الدولة!!

هي بنت خمارويه بن طولون ملك مصر، كانت آية في الحسن، باهرة الجمال، تدير الرءوس وتخطف الأبصار، وقد شغف بها كل من رآها: لفتنتها النادرة وجمالها الطاغي، أما والدها ملك مصر، فقد كان أكثر الناس شغفاً بها، أحبها الملك ابن طولون حباً طاغياً، كانت ابنته هي الأثيرة لديه، المدللة، المتربعة على عرش قلبه، فلم يكن يدخر وسعاً لإسعادها وتلبية احتياجاتها، فقد كانت قطر الندى هي قرة عين الملك وبهجة حياته، وكانت هي الوحيدة القادرة على امتصاص غضبه وقمع ثورته، وتحويله إلى منتهى الدعة والهدوء، كانت تلتف حوله تثير الأفراح والضحكات فينسى هموم الملك والرعية، وتتجاوب روحه مع أصداء ضحكاتها العذبة النقية، وقتها كان يقسم بينه وبين نفسه أن يجعل قطر الندى أسعد إنسانة في الوجود.

obeikandl.com

وكانت قطر الندى من نوع خاص.

هذا النوع الذي يتمتع بجاذبية لا تقاوم.

تستميلك بقوة، فترى نفسك واقعاً في أسر مشاعر عميقة خلابة، مقيداً بأغلال ليس منها فكاك.

كانت من النوع الذي يجعلك ـ رغماً عنك ـ تحبه في الحال.

ولقد تضافرت كل العوامل كي تصنع منها أعجوبة، حتى الناس الذين كان من المفترض أن ينقموا عليها من أجل كل الأضرار المالية، التي لحقتهم بسببها، فإنهم لم يفعلوا، بل على العكس، ازدادوا تعلقاً بها، فقد ظلت تثير فيهم كوامن الخيال والإبداع كبؤرة إشعاع فكري خلاق، فقد كانت حياتها أشبه بأسطورة، خطبها المعتضد بالله من أبيها بن طولون، إثر معاهدة الصلح التي تمت بينهما بعد سجال طويل من المعارك والفتن، فقد كانت وجهة نظرهما: ان يؤكدا عزم صدقهما، ويتوجا صلحهما بالمصاهرة، ومن ثم انعقدت النية أن يتزوج المكتفي بالله ابن المعتضد بالله وولي العهد: قطر الندى، لكن الأب سرعان ما بدل الأوضاع، وأراد أن يستخلص قطر الندى لنفسه، فقد سمع عنها ما أطار عقله وأذهب النوم من عينيه، كانت نعومتها وعذوبتها وحسنها الباهر وعقلها الراجح، وما تمتاز به من خصال نادرة رائعة، ينتظم في سيرة

عطرة تشجي القلوب، وتأخذ بالألباب، فـــرأى المعتضـــد بـــالله أن مزاياها لا مثيل لها، فقرر ألا يفوت الفرصة وقال: أنا أتزوجها!

وبالفعل بعث إليها الهدايا والنفائس وطلبها من أبيها، ثم أمـــهرها بألف ألف درهم.

أما جهازها، فقد كان أسطورة ومأساة في نفس الوقت: لم يدخـــر أبوها مليماً في سبيل تجهيزها، فقد كانت الجواهر التي حملتها معـها من الكثرة، بحيث قيل إنه لم يكن بحوزة أي خليفة شـــيء مثلـــها، وإنها كانت السبب في إثراء المعتضد، أما الملابس: فقد كان نسيجها موشى بسلوك الذهب المطعم باللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمـــة، وقد قيل إنه كان في جهازها عشرون صينية من الذهب الخـــالص، عليها أصناف من التحف والمقتنيات الثمينة، أما باقي الجهاز فقد تـم اختياره بعناية من كل شيء نادر، غالي الثمن، حتى قيل إن جـــهاز قطر الندى قد حوى كل ما لم ير أحد مثله ولا حتى سمع به، وقـــد كانت الركائب التي وضعت عليها الأحمال "جهاز العروســـة" مـــن الكثرة: بحيث تبدو كما لو أنها قافلة تجارية مهيبة، تدهش كل مـــن يراها بفخامتها الملكية وثرائها.

ولكن أباها لم يكتف بكل هذا!

كان الطريق الذي سوف تقطعه قطر الندى من مصر حتى تصل إلى بغداد ــ مقر الخليفة زوجها المعتضد بالله ــ طريقـــاً طويـــلاً

وشاقاً، فكان قلبه يتوجع كلما فكّر في هذه المسافة التي سوف يتحتم عليها أن تسيرها، بكل ما فيها من إرهاق وتعب، لذا أمر الملك خمارويه بن طولون: بتشييد القصور الملكية على طول الطريق حتى حدود مصر كي يضمن لابنته المحببة مكاناً يليق بها، لتستطيع أن تستريح فيه أثناء السفر، فكانت كلما أرهقها السير دخلت إلى قصر من هذه القصور، تستجم فيه بضعة أيام، ثم تعاود الرحيل متابعة سيرها.

ولم يكن هذا كل شيء، فإن عمة قطر الندى التي كانت لا تقوى على فراقها من فرط حبها لها، أصرت هي الأخرى على أن تشيد قصراً عاجلاً على أطراف مصر، كي تمكث فيه أياماً مع ابنة أخيها كي تودعها منه.

كانت كل هذه القصور مجهزة تجهيزاً تاماً، بكل ما يتناسب مع مكانة الأميرة الشابة، ويتوافق مع ذوقها، فقد كان الهدف من ذلك: ألا تشعر أنها قد فارقت قصر أبيها، فيتعكر مزاجها.

ولكن، مع كل هذا، فإن احتفالات العرس: كانت هي التي فاقت الحد فعلاً، حيث تمت وسط مظاهر ترف غير مسبوقة، واستمرت المباهج أياماً وليال، بُعثرت فيها النقود بغير حساب، وابتدع المتخصصون أنواعاً وأشكالاً من الزينات لا تخطر في بال، وفاض البذخ على كل صنوف البهرجة حتى احتار الناس.

ولم يستطع والدها أن يترك قطر الندى تسافر وحدها مع رسل الخليفة، فبعث معها أخاها خزرج بن أحمد بن طولون: كي يرعاها أثناء الرحلة، فكانوا يتعاملون معها وكأنها طفلة في المهد لم تزل، يخافون عليها من النسيم، يوفرون لها كل راحة ممكنة. وهكذا كان الزفاف وبالاً على المصريين، لأن هذا الوالي الذي أصر على أن يحيط ابنته بكل مظاهر الثراء، أفرغ خزائن الدولة من أجل هذا الهدف. وسحب نقود بيت المال كلها، فأصبحت خاوية: لدرجة أن المصريين أخذوا يتندرون على هذا ويقولون: إن المعتضد أراد إفقار الدولة الطولونية فتزوج ابنة خمارويه لهذا السبب!

تركت قطر الندى مصر، ووصلت حتى مشارف بغداد، فلما علم الخليفة المعتضد بقدومها: أصدر أمراً بمنع التجوال في ذلك اليوم، فحظر على الناس أن يخرجوا في الطرقات باتجاه سير ركب قطر الندى، ثم أمر أن يصطف الخدم على جانبي الطريق، وهم يحملون الشموع، وكان الطريق المؤدي إلى قصرها قد تم تزيينه وفرشه قبل أيام، وكذلك فإن شذى البخور الذي أعد خصيصاً لها، كان يداعب أنفاسها، ويلف عبيره حولها كلما اقتربت من باب القصر.

ولقد أحبها الخليفة، مثلما أحبها كل الذين تعاملوا معها.

ويذكر أنه في يوم من الأيام، وكانا يجلسان معاً،أن المعتضد بالله وضع رأسه على ركبة قطر الندى فأخذه النوم، رغم أنه من غير

المألوف أن بفعل ذلك، فقد كان يخاف على نفسه ولا يعطي الأمان بيسر، فقد كانت حياته مستهدفة طوال الوقت، فلما نام على ركبتها، راحت تزيح رأسه برفق ورقة، حتى وضعتها فوق وسادة دون أن يشعر بها، ثم انسحبت من مكانها وجلست بالقرب منه في مكان آخر، فانتبه المعتضد ولما لم يجدها بجانبه فزع ونادى عليها، فأظهرت له نفسها، حينئذٍ عاتبها قائلاً: أسلمت نفسي لك فتركتني وحيدا، وأنا في النوم لا أدري ما يُفعل بي. فقالت: ما جهلت قدر ما أنعمت به عليّ، ولكن فيما أدبني به والدي خمارويه أني لا أجلس مع النيام ولا أنام مع الجلوس.

ولقد ظلت قطر الندى تنعم بحب زوجها وتقديره حتى ماتت سنة ١٨٧ هجري.

ورغم أن الإفلاس قد حل بمصر من جراء زواج قطر الندى، والمبالغ الباهظة التي تم إنفاقها على الجهاز والاحتفالات والقصور، ورغم أن المصريين لم يغفروا لها ذلك أبداً، إلا أنهم أيضاً لم ينقموا عليها تماماً!

فقد ظلت قطر الندى مثيرة لخيالهم، وظل هذا الترف الأسطوري مصدراً للإلهام، ومن هذا التكوين الخلاب ظهرت حكايات تستلهم من شخصية قطر الندى فصولها، وتمزج الواقع بالخيال، وظل الإبهار رغم كل شيء هو الدافع وراء الإبداع.